الخطبة الثامنة عشرة

الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْد للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

إن في القرآن آيات ملفتة للنظر، تدعو القارئ للتمعن بها ودراستها، وبعض هذه الآيات قد تكون مخيفة ومُحَذِّرة حتى لا يقع الإنسان بها فيستحق العذاب، لذلك لا بد من التدبر والتفكر والنظر عند قراءة القرآن الكريم، ومن هذه الآيات التي أريد أن أنوه إليها اليوم، وقد مرت في القرآن الكريم مرة واحدة ولكن فيها خوف وعظة يجب على المسلم دراستها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 3/ 77].

يحذر الله سبحانه وتعالى ويهدد بأمور منها:

1 - (لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) أي: ليس لهم نصيب في الآخرة من رحمة الله تعالى، وقيل: إنه لا مناص لهم ولا مفر لهم من عقاب الله تعالى.

2 - (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ) أي: إنه لا يكلمهم كلاماً فيه رحمة وطمأنينة لهم من العذاب، ولا يكلمهم بكلام يسرهم ويبهجهم.

3 - (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ): لا ينظر إليهم نظر رحمة وشفقة، ولا يعطف عليهم.

4 - (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) أي: لا يطهرهم من ذنوبهم والآثام عليهم.

5 - (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

من هؤلاء؟ وما الجرم الذي اقترفوه حتى ينالوا كل هذا التهديد المخيف؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هؤلاء أصحاب الأيمان الكاذبة، الذين يحلفون بالله لكي يأكلوا من حقوق إخوانهم، وحتى يقنعوهم بحلفهم الكاذب، وبذلك يقتطعوا من حقهم ويأخذوا ما ليس لهم بحق، وهذا الجرم عظيم لأنك تحلف بالعظيم، وتحلف بالرب العظيم، وبإله السموات والأرض كذباً وزوراً في سبيل شيء من الدنيا يسير، وقال تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فهو قليل مهما كان الرقم كبيراً، لأن كل شيء تافه أمام الكذب باسم الله العظيم، الحالف بالله كذباً وزوراً -هذا ما عرف الله سبحانه- وما عرف حقه، وما قدر الله حق قدره، ولا هابه ولا خافه، لذلك استحق هذا العذاب وهذا التهديد.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان»، قال ابن مسعود: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصدقاً من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 174]. البخاري - مسلم.

وقال الأشعث بن قيس رضي الله عنه: كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شاهداك أو يمينه؟» قلت: إنه إذاً يحلف ولا يبالي، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»، ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 3/ 77] - متفق عليه -

(شاهداك) أي: هل لك من شهود أو بيّنة على ما تدعيه؟ إذا لم يكن هناك دليل على دعواك، فالخصم مطالب بالحلف (أي: اليمين)، لذلك كان جواب الأشعث: بأن خصمه سوف يحلف فنبه رسول الله ﷺ على جزاء الحلف الكاذب:

1 – يجب الحذر الشديد من الحلف الكاذب لأخذ ما ليس لنا بحق، والآية دليل ذلك. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال ﷺ: «المسبل إزاره، والمنان، والمُنفِقُ سلعته بالحلف الكاذب» رواه مسلم.

2 – (المسبل إزاره): الذي يُطَوّلُ إزاره وثوبه حتى يلمس الأرض وكان هذا كناية في الجاهلية عن الكِبْر، وكما نقول: هو زهو بالنفس وتكبر، وقال بعض أهل العلم: إسبال الإزار كبيرة سواءً كانت عن تكبر أو لم تكن، لأن رسول الله نهى عنها، ولم يخصص السبب كما في هذا الحديث، ويقولون ما قاله سيدنا عمر رضي الله عنه عندما رأى رجلاً مسبلاً إزاره، قال له عمر: ارفع ثوبك فإنه أطهر لثوبك، وأتقى لربك، كما في رواية البخاري.

3 – (المنَّان): الذي ينفق ويتصدق ويعطي ثم يمنن بعطاياه ويذكرها دائمًا وأبداً، ويذكر إخوانه وأهله بعطاياه ونفقاته، وهذا الأمر نهى الله سبحانه وتعالى عنه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 2/ 264].

4 – (والمُنْفِقُ سلعته بالحلف الكاذب): يبيع سلعته بالحلف الكاذب، يدَّعي بأنه اشتراها بكذا وكذا... ويدَّعي أنها من صناعة كذا وكذا... ودعواه وحلفه كاذب وما قصده إلا بيع بضاعته، وربما أخذ أكثر من ثمنها والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 2/ 224].

فيترتب على هذا: كذب وافتراء، وادّعاء باطل، وأكل مال بيمين باطلة، ولم يخف الله تعالى، وارتكب ما هو موجب لغضب الله تعالى، لأن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم؛ لقي الله وهو عليه غضبان» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل ماء، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك» البخاري (2240).

5 - (اليمين الغموس): وهو حلف ويمين كاذبة لأخذ حق امرئ مسلم، وسميت غموس، لأنها تغمس صاحبها في النار، وحتى لا يُعَذَّب الإنسان بيمينه أو حلفه الغموس، يجب: أ- إرجاع الحقوق إلى أصحابها، ب - التوبة والندم والاستغفار والعهد على ألا يرجع إليها.

6 - (ورجل منع فضل ماء): أخذ حاجته من الماء واكتفى، ولكن منع الماء عن غيره، وذلك لأسباب عديدة منها: الكراهية والحقد والحسد وعدم محبة الخير للآخرين وقد ... وقد ... والماء ماء الله، والعطاء عطاء الله، وأنت قد أخذت حاجتك فَلِمَ تمنع الخير عن الآخرين، والماء حاجة أساسية لبني البشر، وخصوصاً للفلاحين الذين يزرعون أرضهم، فأنت بفعلك هذا قد تُسَبِّب ضرراً وأذى وموتاً للمحاصيل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يفِ له ...» البخاري (2527).

7 - (المبايعة للدنيا فقط): هؤلاء الذين يترشحون لمناصب، يَعِدُونَ المنتخبين بوعود تعود عليهم بفوائد مادية، أو بوظائف ومناصب، فالمصيبة هنا هي: أن المبايعة تتم فقط لتحقيق مكاسب فردية شخصية، أما الصالح العام وفائدة المجتمع، فهذا ليس مهماً لا للمرَشَّح ولا للنّاخب، لأن المرَشَّح لا يريد إلا المنصب وكسب الشهرة والاستفادة المادية والعلاقات الاجتماعية من هذا المنصب الذي يرشح نفسه له، والناخب أيضاً ينتخبه لتحقيق مكاسب شخصية لنفسه، فالقضية أنانية بحتة، ومكاسب شخصية، وشهوات دنيوية، أما إصلاح المجتمع وصلاح الأفراد فهذا ليس بحسبان أحد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: الشيخ الزاني، والإمام الكذّاب، والعائل المزهو» صحيح سنن النسائي.

8 - (الشيخ الزاني): رجل كَبُرت به السن، وضعفت شهوته، ورأى من الدنيا ما رأى؛ يرتكب هذه الفاحشة الكبيرة، لا يخاف على سمعته، وعلى سمعة عائلته وأولاده وأحفاده، يترك أثراً سيئاً قد يُقتدى به والعياذ بالله، يُعَيّر الناس أولاده والعياذ بالله، ثم بعد هذا العمر الطويل ألم تكتسب علماً وحكمة وخبرة؟ أما فَادَكَ كل هذا؟ ثم ألم تعلم أن الزاني المحصن عقوبته الرجم؟ أتستهين بشرع الله وأنت على حافة قبرك؟ اللهم أجِرنا وعافنا، عَظُمَتْ الجريمة فَعَظُمَ العقاب.

9 - (الإمام الكاذب): أنت إمام بيدك مقاليد الأمور، كيف تكذب ولِمَ تكذب؟ الكذب لجلب مصلحة، والكذب مخافة العقوبة، والكذب نتيجة ضعف، هذه أسباب الكذب، فإذا كنت إماماً أو قائداً أو مسؤولاً، فالأسباب الثلاثة لا تنطبق عليك، وإلا فأنت لست أهلاً لأن تكون في هذا المنصب، ثم المصيبة في أن القدوة يكذب فما بال من دونه.

10 - (العائل المزهو): وفي رواية مسلم (107) قوله: «والعائل المستكبر» فأصبح المعنى: عائل مزهو مستكبر، أي: رجل فقير ذو عيال، متفاخر متكبر، وذلك لأن التكبر مرض نفسي وهو لا يجوز أصلاً وصفة سيئة، والغني يتكبر لأنه يملك ما يجعله متكبراً، وهذا سيء ولا يجوز، فغناه أطغاه، أما هذا الفقير فلا يملك أسباب التكبر، فيتكبر؟ ويتفاخر بماذا؟ وقال الإمام المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير: تكبره وتفاخره منعه من أن يأخذ من الصدقات أو من بيت مال المسلمين، فجوَّع أولاده، ولم يعطهم حاجتهم من المأكل والمشرب والملبس والمسكن. ضيّق على نفسه وعلى أهله بتكبره وتفاخره، وقال بعض أهل العلم: إنه بتضييقه على أولاده وأهله جعلهم يرتكبون الحرام حتى يَتَحَصَّل لهم ما يريدون من حاجاتهم المعيشية، فالأولاد قد يسرقون، والبنات قد يرتكبن الفواحش والعياذ بالله، وقد يكون سبباً في فساد المجتمع من حوله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى» صحيح سنن النسائي - حم - ابن حبان.

11 - (العاق لوالديه): الولد الذي لا يُرْجى خيره لوالديه، وأسوأ منه الذي يتسبب بأذى لوالديه، فهذا لا يرحمه الله تعالى ولا يدخله الجنة، لأن الذي ربَّاك وأعطاك وحماك وبذل قصارى جهده في إسعادك وتعليمك وأعطاك ما يملك وما استطاع عليه، فأنت بعقوقك جحدت فضله وتعبه، فأنت لست أهلاً للرحمة ولا للعفو ولا للعطاء.

12 - (المرأة المترجلة): التي فقدت أنوثتها وحياءها، وشكلها ولباسها، فهذه غَيّرت خلقة الله تعالى، وطبيعتها التي خلقها الله عليها فتصرفاتها ليست متزنة، وقد يكون سببًا في فساد أخواتها وبنات معارفها، والله سبحانه أعلم، وكذلك حرَّم رسول الله الرجال من أن يتشبهن بالنساء شكلاً وتصرفًا ولبسًا ومضمونًا وتكسراً في الكلام، فكلاهما حرام، وكلاهما مخالف لفطرة الله سبحانه التي فطرهم عليها.

13 - (الديوث): وهو الذي يرضى الفاحشة في أهله، في زوجته وبناته وأخواته وأقاربه، حتى في المجتمع كله يجب على كل إنسان أن لا يرضى بالفاحشة، ولكن الديوث يرضاها في أهل بيته وهذا من أخبث وأرذل المنازل فهو معدوم الضمير، ومعدوم الشرف، ومعدوم السمعة والاحترام، وهو بؤرة فساد له ولأهله ومجتمعه. وقال بعض أهل العلم: إن الديوث الذي يرضى ويقبل ويسكت عن الفاحشة في أهله من الإناث والذكور على حد سواء.

14 - (المرأة التي لا تشكر زوجها): عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه» صحيح سنن النسائي - ك.

وقيل: إنها المرأة الجاحدة، الناكرة للخير وللمعروف، فمهما قدم إليها زوجها فهي لا تشكره، وتطلب المزيد، وترهقه، وقيل: بأنها المرأة التي لا تعطيه حقه من التقدير والاحترام، فإذا هي لم تشكره وضيعت ذلك فهي لحقه واحترامه أضيع، ونقول عنها: لا يعجبها العجب، دائماً ترى نقصاً في كل شيء، ولا ترضى، ولا تسعد، ولا تهنأ، وبهذا يفقد هذا البيت سعادته وطمأنينته، ولا تكون سكناً لزوجها حسب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 7/ 189].

فالسكن فيه الحب، والرضا، والسعادة، والبسمة الجميلة، والكلمة الطيبة، والعون على النوائب، وهذه المرأة لم تأت بهذه الأوصاف والله سبحانه وتعالى أعلم.

الشرع وأحكامه كلها خير لصالح الفرد والأسرة والمجتمع، وهذا لا شك فيه ويجب الإيمان بذلك مطلقاً. وفي بعض الأحيان قد لا يتضح لنا القصد من هذا الحكم، وذلك لقلة خبرتنا أو لقِصَرٍ في نظرنا أو علمنا، ولكننا نؤمن بأن الله سبحانه كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 16/ 90].

ونحن نعلم بأنه كلما كبرت الجريمة وكبر الذنب فإن العقوبة تكون أكبر، فالعقوبة تتماشى مع الجرم والذنب وهذا أمر بدهي، لذلك الأحاديث التي مرت فيها عقوبة وزجر وتهديد شديد وما ذلك إلا لأن الجرم كبير أدركنا ذلك أم لم ندركه، وباب التوبة والاستغفار مفتوح لمن أراد الرجوع عن أي معصية، كبيرة كانت أو صغيرة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» صحيح الترمذي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم